بقلم : راشد رستم

كان ذلك فى باريس ، فى ضحى يوم من أيام الآحاد، وفريد جالس فى غرفته كعادته فيه ـ فريدا وحيدا ، متكاسلا منشغلا ببعض القراءات والكتابات ، واذا به يسمع صوت اقدام نسائيـــة تسرع الخطا نحو غرفته ..

انها «المدموازيل» مارى رئيسة الخدم، تدق الباب دقات سريعة متتالية ، ولكن فى لطف وخفة وأدب .

فريد ـ خيرا يامدموازيل .

مارى ـ خيرا خيرا خيرا .. بورنجـور مسيو .. آسرع .. آسرع .. هيا .. هيا .

ثم تتكلم بسرعة الف كلمة فى الدقيقة ـ دون ان تعطى فرصة للاستفســـار . مثلها فى ذلك مثل الكثيرات من بنات جنسها الفرنسيات اذا ما ارتفعت درجة اهتمامهن بأى أمر من الامور .. تافها كان أو خطيرا .

فريد ـ ماذا جرى يامدموازيل ؟ .

مارى ـ .. فى انتظارك تحت. ها انا صعدت السلالم الى هذا الدور الرابـــع بسرعة المصعد .. يا الله ! ليس هـذا بالأمر السهل .

فريد ـ يا مد ...

مارى ـ المصعد عاطل واليوم يوم الأحد .. تصور .. يا مسيو فريد .. ليست غلطتى ولا ...

فريد ـ يامدمو ...

مارى ـ ولا غلطة أحد من الخدم ..من يدرى . لعل احدا من السكان قد جاء متأخرا الليلة الماضية ولم يحسن معاملة المصعد .. و ..

فريد ـ يامدموا ...

مارى ـ فأساء الى المصعد وهكذا أساء الينا جميعا .. يا الله .. اسرع يا مسيو فريد .. انها .

فريد ـ يا مدموا ...

مارى ـ انها فى انتظارك عندى فى مكتب المدخل .. وليست فى ..

فريد ـ يا مدموا ..

ـ مارى ـ نعم ليست فى الصالون .

فريد (وقد قل صبره..) يامدموازيل

مـــارى .. حلمـــك .. من هى التى تقصدين .. وماذا فى الامر ؟ .

مارى ـ .. أتسألنى من هى ؟ ألم أقل لك ان « المس » مارجريت هى فى انتظارك تحت فى مكتبى ! .

فريد ـ لا .. لم تقولى شيئا من هذا .. مع اننى قلت اشياء كثيرة جدا ومع ذلك خير ان شـاء الله ثم ماذا جاء بها اليوم بعد غياب أربع سنوات ! .. ثم لماذا فى مكتب المدخـــل وليس فى الصالون ؟ .

مارى ـ أنا أبقيتها عندى .. كم أنا أحبها .. ثم انها غابت بالضبط اربع سنوات وشهرين وعشرة أيام ... كما عملت الحسبة معها الآن .. ثم قل لى يا مسيو فريد هل أنت تعاتبها عـــلى المجىء أم على الغياب ؟! كم أقدرها .. ولقد سررت جدا جدا برؤيتها ومكثت معها بعض الوقت قبل أن أصعد اليك وان كانت تقول لى انهـا متعجلة ! .. ما أجملها وما أرشقها .. هيا .. هيا .. أسرع يا مسيو فريد .. انها متعجلة !

هذه هى المدموازيل مارى النشيطة الطيبة القلب ، المحبوبة من الجميع .. ثم أكمل فريد هندامه وأسرع .. ولكن المس مارجريت كانت قد اســـتبطأته فأخذت تصعد السلم .. واذا بهمـــا يلتقيان فى ذات الموضع الذى كان عنده أول لقاء لهما مصـــادفة أيام كانت تسكن فى نفس الفندق البيتى منـــذ أربع سنوات .

وقف كل منهما جامدا فى مـــكانه وقد أخذتهما المفاجأة الســـارة فجعل كل منهما ينظر الى الآخر لحظة أو بعض لحظة .. ثم ما أسرع أن تحركت الشفاه وشاعت البسمات وبانت نشوة اللقاء بعد طول الغياب .. ثم اندفعت مـــع النظرات العميقات تيـــارات الاشتياق والترحيب الحبيب .. وقد تولاهمـــا الاضطراب المحبوب فتسرع العيون فى قليل من اللحظات تسرح فيها مع مكنون ذكرياتها الماضيات لتفرح بها فيما ترجو من بهجة الايام ... ثم انطلقا فى نبرة واحدة .

هى ـ كيف أنت .

هو ـ كيف أنت

ثم تقاربا ليسيرا جنبا الى جنب نحو الباب الكبير للخروج .. وتخبره بأنهـا وصلت صباح اليوم بالطائرة وانهـــا حاولت الاتصال تلفونيا فلم توفق فتركت حوائجها فى الفندق وأسرعت اليه خشية خروجه رغم علمها بأنه يلزم « قلعته » صباح الآحاد .. ثم تميل اليه فى دلال واشتياق وتقول :

مارجريت ـ هل أنت حر اليوم ؟

فريد ـ اليوم وبعد اليوم .

مارجريت ـ (فى رقة ونظـــرات سارحة) هل تسمح لى ان اتناول الغداء معك اليوم ؟!

فريد ـ هنا ؟

مارجريت ـ نعم هنا .

فريد ـ بكل سرور .

مارجريت ـ اذن تسمح لى بأن اذهب الى الحلاق ؟

فريد ـ هكذا سريعا .

مارجريت ـ انها باريس يافريد .

فريد ـ فى الانتظار ٠

ثم اوصلها الى العربة وعاد راجعا ماخوذا بالدهشة الممزوجة بالبهجة لهذه الزيارة المفاجئة ٠٠ وهو وان لم يستطع ان ينساها مدى تلك السنين غير انه لم يكن يظن ان القدر سيجمعهما مرة اخرى ٠ وفى الحق لقد كان يحمل دواما ذكرياتها وهو كسيف حسير حزين ٠

واليوم يشعر بالسروريحتويه ويسرى فى فؤاده وبالانشراح يملأ جنانه وبالنشاط يدب فى كيانه ٠

وفى عودته جابهته المدموازيل مارى تخبره انها أتمت كل شىء ! ٠٠ وانها أصدرت الاوامر لترتيب المائدة ٠٠ وان توضع فى الركن الهادىء من صالة الاكل وأن تجعل لاثنين وتزين بزهرات النرجس ٠٠ وأن يقدم النبيذ الابيض الخفيف وان يقدم الطعام فى الوقت الذى تكون فيه الصالة قد خلت من كل أحد ٠٠ و ٠٠ و ٠٠

عجب فريد من أمر مدموازيل مارى وتتبعها لهما بلباقة مع العناية الفائقة واسترااق السمع وهما يتحدثان ٠٠ بل يتناجيان ٠

على أنه شكرها على هذه الرعاية ٠ ثم اتجه نحو المصعد ليعود الى « قلعته » ٠

مارى ـ ماذا بك يا مسيو فريد ٠٠ الست مسرورا أم أنك مشغول البال ؟ الم أخبرك منذ قليل بأن المصعد عاطل اليوم ! ٠٠ هل نسيت أم أن شيئا قد شغلك فأنساك ! بالله ماذا بك يا مسيو فريد ؟ ٠٠

فريد ـ (فى ارتباك بسيط) لاشىء ٠٠ لا شىء ٠

مارى ـ أرجو ذلك وارجو ان اقول لك شيئا ٠

فريد ـ تفضلى ٠٠ قولى ٠

مارى ـ كل ما اعلمه عنكما جميل وجليل ٠٠ ان امثالنا يفهمون الناس سريعا وصحيحا ٠

فريد ـ اشكرك كثيرا ٠٠ وانى احفظ لك منذ الايام الاولى كل خير ٠

مارى ـ ٠٠ ان «المس مارجريت» تنطوى نفسها على صفات وطباع تسير وتتفق مع نظام معيشتك ٠٠ لقد عرفتها وخبرتها وخبرت ميولها ! ٠

فريد ـ (مرتبكا) ما هذا يامدموازيل ٠٠ وما الداعى الى كل هذا ! ٠

مارى ـ ليس فى كلامى شىء غريب او غير صحيح ٠٠ ان التقريب بين القلوب ليس كالتنفير منها ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠

فريد ـ ٠٠ نعم ٠ نعم انه حق كذلك

وبعد الغداء اللطيف فى جو الخريف المنعش مع نشوة النبيذ الخفيف ، فى صفاء الميول ورقة الرضا وحسن القبول والجلسة ذات الاحاديث ٠ عرض فريد على « ضيفة الشرف » ٠٠ تناول القهوة على الطريقة الشرقية ٠

مارجريت ـ جميل ٠٠ أيصنعونها هنا ؟ ٠

فريد ـ لا ٠ ولكنى انا الذى اقوم

بعملهـــا ·· ربما فى غرفتى ·· لذلك ربما ! ·

مارجريت ــ ربما ماذا ! هيا بنا الى غرفتك ·· كم كنت مشتاقة اليها وكم حدثتنى المدموازيل مارى ·· عنها ·· وما فيها من روح وحياة ··

فريد ــ (مبتسما معجبا راضـــيا) المدموازيل مارى ·· نعم المدمـــوازيل مارى دائما ··انى أقدر لفتاتها وخدماتها وأحترمها ·

مارجريت ــ اتتهكم ·

فريد ــ كلا · حقا كلا ·

وفى لمح البصر كان فريد ومارجريت فى الغرفة « ذات الروح والحياة » وفى لمح البصر كذلك لاحظت مارجريت كل شىء فيها ·· ثم ألقت بنفسها فى راحة واطمئنان على «الديفان» ·· وهى تقول:

مارجريت ــ انى عاتبة عليك كثيرا يا فريد ·

فريد ــ خيرا ·· !

مارجريت ــ ألا تذكر عندما جئتبك يوما الى غرفتى فى فندق فى تلكالايام الاولى ·· ورفضت ان تجلس لتمكث·· وبقيت واقفا · فى رزانة ولـــكن فى رشاقة ·· كما يقف برج ايفيل هنـــا بباريس صامتا وهو الذى تصدر عنه من اعلاه تيارات وموجاتأثيرية قوية الهزات ··· ألا تذكر ؟ ··

فريد ــ (فى استحياء) أذكر ·

مارجريت ــ كم من الزمن مضى عـلى ذلك ؟ ·

فريد ــ اربع سنوات ·

مارجريت ــ لا ، بل اربع ســـنوات وشهرين وعشرة أيام ·

فريد ــ (ضاحكا مسرورا) اكثر الله من امثال المدموازيل مارى ·

مارجريت ــ أتتهكم عليها ·

فريد ــ معاذ الله ·

مارجريت ــ ان الامر يخصنا · دع مارى الآن · أتدرى ! · لقـد ارتفعت انت يومذاك فى نظرى قدرا وتقديرا · فوق قدرك وتقديرى ·· فلا تبتئس بما اقوله لك الآن ــ فقد نشأت انا بين قوم محافظين ·· يرضيهم هذا شكلا وان كان لا يرضينا موضوعا·· ولكنى فهمتك يومذاك اكثر من أى يوم ســـابق ·· ما أحلى الحياء مع الود والاخلاص ! انى آسفة لهذا الحديث ذى الشجون ولكن معـــذرة ·· انى أعيد ذكرى ماض لم يمض ·

فريد ــ حقا كل ما تقـــولين ·· ان الناس لهم الظـــواهر ·· انى أحب من يحبنى ولا أكره من لايحبنى · انه حر· وأنا حر · غير انى لا اتظاهر بل افضل فى ذلك الصمت والهدوء · مع الرضا والاخلاص ·· أليس لكل وجهة هـــو موليها ؟ ·

مارجريت ــ نعم · الناس احرار فيما يفعلون ·· ولكنى أطالبك من الآن بأن تفصح عن نفسك بلسانك كما تعلن عنها بعينيك ·

فريد ــ أليست العين أفصـــح من اللسان ؟ ·

مارجريت ــ (ضاحكة راضية) وهى اخطر ·

وبعد فترة صمت وسكون وهدوء وتاملات من الطرفين المتناقشين ! .. سالته عن القهوة وأجابها بأن المناقشة أو المناوشة .. أخذت منهما وقتا كان لطيفا بفضل المدموازيل مارى .

مارجريت ـ يا للمسكينة .. انى أقدرها وأحترمها واحفظ لها جميل الذكريات .. والآن اريد ان ارى كيف تصنع القهوة التى وعدتنى .. اياك الا تكون هناك قهوة اطلاقا ! .

فريد ـ ها هى ذى ..

مارجريت ـ حقا انها لذيذة ومنعشة اكثر من القهوة الفرنسية السوداء ذات المرارة مثيرة المرارة .

ثم ادارت بصرها فى الصور المعلقة وهى ترشف من القهوة فى استمتاع واسترواح . ثم تسأل ..

مارجريت ـ صورة من هذه ؟

فريد ـ صورتى وانا صغير . انى أحبها واحتفظ بها امام ناظرى دائما وان كانت مناسبتها فى ذاكرتى دواما. لها ذكرى طيبة مع والدى وأنا فى الرابعة . وقد خلعت أول سن لى . ثم أرضانى والدى بما اشتراه لى مما يعرف انى اميل اليه من لعب الاطفال ـ قطار سكة حديد ثم اخذنى الى صاحبه المصور النمساوى الشهير . فكانت هذه الصورة .. التى ارتاح اليها كثيرا وارضى عنى فيها .. ولا أدرى لماذا وضع المصور فى يدى اليسرى كتابا ـ ولم أكن لذلك السن اذهب الى المدرسة وان كنت أتلقى من فقيه البيت سورا من الكتاب الكريم وبعض المحفوظات دون كتابتها .. وكان ذلك المصور اللطيف قد أوحى اليه بما سيكون لى من حب الكتب واقتنائها حتى صارت لى مكتبة كبيرة معروفة . أعتز بها كأثمن شىء لى .. واقضى أروح أوقاتى فيها .. وأقول عنها ..«اذا غبت عنكم فاسألوا عنى مكتبتى » .

مارجريت ـ وما هذا المكتوب تحت الصورة ؟ .

فريد ـ انه بالفرنسية. وبالانجليزية وبالعربية ما معناه ـ فى أيامى مع جنياتى ... !

مارجريت ـ حقا انها صورة بديعة طريفة .

فريد ـ ان ذلك المصور كان فنانا قديرا . وكان والدى كذلك فجمعت بينهما محبة الفن سواء كانت حرفة أو هواية .

مارجريت ـ نعم . الصورة جميلة جدا .. غير انى اقصد اكثر من ذلك ان الذى فى الذى فى الصورة .

فريد ـ .. والذى فى الذى فى الصورة .. أهو جميل كذلك ؟ ..

مارجريت ـ لا تتهكم .. كفاك تهكما .. اسمع ان فى الشخص الذى فى الصورة (وهو سيادتكم ..) شيئا جميلا آخر .

فريد ـ حسن وما هو هذا الشىء .. يا ترى ؟ .

مارجريت ـ ألا تعرفه ؟

فريد ـ ليتنى أعرفه بعد هذه السنين الثلاثين · انى بطىء فى فهم الفوازير ·

مارجريت ـ قلت لك لا تتهكم ·· انظر الى الصورة أولا ·· ثم انظر الى عينيك فى المرآة ·· ثم دعنى انظر اليك والى الصورة ·· ثم تعال أريك كيف تحل الالغاز والفوازير ·

فريد ـ ·· لا تتهكمى ·· !

مارجريت ـ ان الذى فى صورتك صغير هو عينه فيك كبير ·

فريد ـ لم أفهم شيئا ·

مارجريت ـ عيناك · عيناك ·· كانى بهما اليوم هما فى ايامك مع حورياتك الصغيرات ·

فريد ـ حقا · وان كلمة الحوريات الصغيرات افضل من الجنيات ·· وان كانت الجنيات أوفق ·

مارجريت ـ ان الذى فى عينيك هو فيهما لايزال ·· وان كانت قد اتسعت دائرة لعبه مع الحوريات الكبيرات ·

فريد ـ وانت ! انت كذلك ··

مارجريت ـ انا ! انك لم تعرفنى صغيرة ·· وليست لى امامك صورة مع ··

فريد ـ مع ·· مع ·· مع ·· لست أدرى ! ·· ولكن شعورى ـ وهو لا يخيب ـ يقول لى ان فمك هذا هو فمك ذاك ·

مارجريت ـ (فى دهشة الارتباك) فمى ! أهكذا تعلمت سريعا ان تفصح بلسانك كما كنت تتكلم بنظراتك ؟ ..

فريد ـ ولم لا ! وانى أكاد أقرر ان هذه الشفة التحتانية هى هى .. فيها كل شىء .. وان كان هذا الشىء قد ازداد مع الأيام .

مارجريت ـ لن تغلبنى . فانا لازلت استاذتك . وانا الذى حركت لسانك بما يدور فى عينيك . وبين جنبيك .

فريد ـ ولكنى برهنت على انى تلميذ سريع الفهم سريع التطبيق .

مارجريت ـ ولكن ما قولك .. فى ان شفتى هذه ليست هى شفتى تلك ! ..

فريد ـ أمر غريب .. وكيف كان ذلك ؟ .

مارجريت ـ اننى انا التى حولتها الى ما ترى .. وكأنى جنيت عميقا بنفسى أو جنيت بها على نفسى !

فريد ـ على العكس . ليس فيها ما يعيبها وليست تعيبك .. بل هى جميلة .. مليانة .. جذابة .

مارجريت ـ هذا ما قصدته لها .. ولكن قل لى أتقول حقا أم تتهكم ؟ .

فريد ـ اقول حقا . وأقول ما أعتقد بل وما أشعر وما أرى ..

مارجريت ـ اسمع . لقد كنت وأنا صغيرة ازيدها امتلاء ووضوحا ..

فريد ـ ماذا تقولين .. أيمكن ذلك؟

مارجريت ـ نعم . بالتدليك الدائم وبالارادة . حركات اليد ومسحاتها وبالصبر مع الزمان وعلى الزمان مع رغبة الاتقان .

فريد ـ وماذا كان قصدك من ذلك ؟ لعله للفتنة والافتتان .

مارجريت ـ الآن يرضينى تهكمك .. فالشفتان اللتان تحبان التهكم على طريقتك ، تحبان المتهكم عليه .

فريد ـ ارتضينا .. ولكن لم تذكرى ماذا كان قصدك فى شفتك ؟ .

مارجريت ـ ان اجعلها مثل شفة المرحومة والدتى .

فريد ـ ولماذا ؟

مارجريت ـ لانى كنت أشعر بلذة قبلاتها ..

فريد ـ هذا غريب .. امسحات اليد حتى مع الاستمرار تفعل هذا ؟!

مارجريت ـ صدقنى .. انظر .. هات يدك .

فريد ـ يدى ! وما شأن اليد بالشفة ! .

مارجريت ـ اذن هات شفتك .